دراسة مقارنة
النواحي الصوتية
في كتاب العين والنظرية الحديثة في علم الصوت

الدكتور خليل ابراهيم الحماش

استاذ مساعد في قسم اللغات الاوربية

اولا : المقدمـــة :

تنحصر مهمة بحثنا هذا في بيان مدى التشابه والاختلاف بين النظرية الحديثة في علم الصوت ، والنواحي الصوتية التي عرض لها الخليل بن احمد الفراهيدي « ١٠٠-١٧٥هـ » في « العين » وبعبارة اخرى سنحاول ان نستقصي الافكار اللغوية والنواحي التكنيكية والعلمية لدراسة الاصوات التي توصل اليها الخليل في كتاب العين في القرن الثامن للميلاد ، والتي بقيت معمولا بها الى الان ، والنواحي التي استحدثت بعده .

ونأمل من هذا ان نلقي بعض الضوء على عبقرية الخليل ، كما نأمل من ناحية اخرى ان نبدد الاوهام (ان وجدت) التي يحيط بها البعض كتاب العين ، ونتاج الخليل بصورة عامة .

سنتولى في الخطوة التالية تحديد المعالم الاساسية « النظرية والعملية » للنظرية اللغوية الحديثة المسماة بـ « النظرية التركيبية » والتي تدعى في الانكليزية (Structural Linguistics) كما سنتولى شرح تطبيقاتهـــا

---

(١) يتقدم كاتب هذا البحث بالشكر والعرفان للاستاذ الدكتور مهدي المخزومي اللغوي العراقي المعروف لتشجيعه وملاحظاته القيمة التي لولاهـا لما تحقق انجاز هذا البحث . كما يتقدم بجزيل الشكر للدكتورة عاتكـة الخزرجي والدكتور ابراهيم السامرائي والسيد عبـدالكـريم توفيـق للملاحظات القيمة التي دونوها على مسودة البحث .

فى النواحى الصوتية على اللغة العربية الفصحى •

وفى الوقت نفسه سنناقش النظرية اللغوية « الصوتية » للعين • وتطبيقاتها على اللغة العربية الفصحى • كما سنتولى مقارنة النظريتين فى الاطار العام وفى النواحى التفصيلية لهما •

من هذا يبدو واضحا اننا سوف لن نتعرض لبحث اصل كتاب العين ، ولا لسيرة الخليل ولا للنواحى الادبية الواردة فيه ، ولا لبحث موضوع العروض الذى ساهم الخليل فى تطويره بشهادة الكثيرين ، حتى ولا لنتاج الخليل فيما عدا العين ، بل سنقصر البحث على النواحى الصوتية والنواحى اللغوية المتعلقة بها كما وردت فى العين ، او فى بعض الكتب التى تنقل نصوصا عن العين •

ثانيا : النظرية اللغوية العامة :

آ ـ تتميز طريقة البحث اللغوية الحديثة بكونها تتبع اسلوب استنباط الحقائق اللغوية من الملاحظات الحية والدراسة الميدانية لعينات من لفظ متكلمى اللغة المراد تحليلها ووصفها ولا يجوز فى هذه الحالة تطبيق قواعد لغة ما على قواعد لغة اخرى • ولهذا يعتبر الناطق باللغة المراد تحليلها (native informant) مصدر الحقائق والقواعد النحوية التى يتوصل اليها الباحث اللغوى ، وهذا يعنى ان الالفاظ التى ترد على لسان الناطق بتلك اللغة هى الالفاظ الصحيحة فى عصر تسجيلها بغض النظر عن اصولها التاريخية ، وهذا يحتم الفصل بين طريقة البحث الوصفية وبين طريقة البحث التاريخية (راجع Halliday, pp. 15-17) ولا يجوز الخلط بينهما • فان أردت أن تصف لغة ما ، فعليك أن تصفها كما ترد على السنة المتكلمين بها فى هذا العصر ، وعليك الا تعود الى الاصول التاريخية للالفاظ لان للاصول التاريخية طريقة اخرى للبحث والتقصى ، ودارسين مختصين آخرين أيضا • يناقش الخليل فى كتاب العين استعمال الحروف الذلق والشفوية ، ويتوصل الى ان الاسم الرباعي لا يخلو من الحروف الذلق

والشفوية او من احد حرفى الطلاقة او من كليهما او من السين والدال او من كليهما ، ويقول انه اذا « ورد عليك شيء من ذلك ، فانظر ما هو تأليف العرب ، وما ليس من تأليفهم ... ولا ينسب الى العربية ولو جاء عن ثقة لم ينكر » (العين ص ٦٠) وهذا يعني ان الثقة من متكلمي اللغة ليس هو القياس وان القاعدة التى يضعها اللغوى تعلو على متكلمى اللغة ، وهذا امر لا يقبل فى البحوث اللغوية الحديثة .

اذ ان الطريقة تدخل ضمن كلام العرب كل ما هو جار على السنتهم فى وقت تحليل اللغة بغض النظر عن اصوله التاريخية ، وبغض النظر عن كونه دخيلا او اصيلا ، فالاستعمال لا القاعدة هو الحكم فى الفصل بين ما هو من كلام العرب عن غيره فى طريقة البحث المعاصرة .

وتفسيرنا لموقف الخليل هذا هو انه كتب فى عصر انفتحت فيه الحضارة العربية على الشعوب الاخرى ، وكثر اختلاط متكلميها بأقوام تتكلم لغات اخرى ، مما ادى الى تطور مفردات اللغة العربية وفى بعض تراكيبها . وافضى هذا الى الاحساس بضرورة وضع قواعد للغة العربية تصونها من التيار الدخيل . وهذا يتمثل بالمدرسة اللغوية البصرية بصورة عامة . الا ان الخليل رغم هذا توصل الى قواعد اللغة التى وضعها عن طريق الاستقراء وهذا بحد ذاته اسلوب لا يزال متبعا فى الدراسات اللغوية الحديثة .

ب ـ فى النظرية اللغوية الحديثة تعتبر الدراسات الصوتية (phonetics, phonemics) اساس الدراسات اللغوية الاخرى ، فلن يكون بالامكان دراسة الاشتقاق والصرف وبقية قضايا النحو لاية لغة قبل تحديد نظامها الصوتى بشكل دقيق واكيد وينطلق هذا من مبدأ الاهتمام بالشكل دون المعنى لان الشكل واضح بيّن يمكن تحليله ودراسته دراسة

كمية مفصلة على حين يعترى المعنى كثير من الغموض والعناصر الذاتيـــة والخضوع للظروف والمواقف المتباينة •

فمن وجهة النظر اللغوية الحديثة تعتبر الدراســات اللغويــة التــى تستند الى المعنى دراسات لا توصل الباحث ومتعلم اللغة الى الهدف المنشود علاوة على انه يسهل تفنيدها ومهاجمتها نظريا وعمليا •

من الواضح ان كتاب العين ياخذ بهذا المبدأ بشكل لا يقبل الشــك ، فبعد ان حدد العين الوحدات الصوتية التى عددها تسع وعشرون وحـــدة (اسماها حروفا) وقسّمها الى سواكن وحروف علة واعتمد السواكن على انها عناصر ثابتة فى أصل البناء (الجذر) واعتبر حروف العلة (vowels) عناصر التبدل التى تدخل فى عملية الصرف والاشتقاق وبطريقة حسابيـة فذة استطاع أن يكوّن الصورة الاساسية للتراكيب العربية متخذا النظـام الصوتى اساسا لمنطلقاته تلك • فقد اعتمد تتابع السواكن اساسا للتراكيب من الناحية النأرية معتمدا على الرياضيات فى هذا كما يظهر فى الجـدول التـــالى :

جدول رقـم (١)

تصريف التراكيب العربيـة

عدد السواكن	٢	٣	٤	٥
اوجه الصرف	٢	٦	٢٤	١٢٠

أي ان الثنائي يتصرف على وجهين حسب الكانيات التتابع والثـلاثي على ستة اوجه والرباعى على اربعة وعشرين وجها والخماسى على مائـــة وعشرين وجها (العين ص ٦٦) •

ثم يعود الخليل فيتفحص ذخيرته اللغوية ليجد امثلة على الاحتمالات

النظرية التى وضعها فيحدد ما هو موجود فعلا وما هو غير موجود وبعد هذا يسرد الامثلة ويتطوع بشرح معانيها بسبب مهمته فى اعداد المعجم • فدراسة المعنى اذا امر عرضى لدى الخليل وهو نتاج عرضى للطريقة الرياضية الموضوعية التى توصل اليها وليس اساسا لها •

جـ ـ يفرق اللغويون فى عصرنا هذا بين الحرف والصوت ، فالحرف وحدة من وحدات النظام الخطي والصوت وحدة من وحدات اللغة والكتابة الهجائية المستعملة حالياً فى كثير اللغات لا تمثل أصوات تلك اللغات بشكل دقيق فقد يمثل صوت بعدد من الحروف وقد يستعمل حرف واحد لتمثيل عدد من الاصوات لذا اصبح من الضرورى التميز بين الحرف والصوت ولاجل تمثيل الاصوات بشكل دقيق ابتدعت حروف جديدة سميت بالرموز الصوتية أهمها تلك التي وضعتها جمعية علم الصوت العالمية (IPA) وهذه الرموز فى الحقيقة مستقاة من لغات اوربية متعددة اعدت لتمثل الاصوات المختلفة فى لغات العالم ويشار الى الصوت بالرمز أو الحرف العالمي وليس بأي حرف من حروف اللغات المعنية •

من الواضح ان كتاب العين يستعمل تعبير « الحرف » للدلالة على الصوت اذ انه ورد فى بداية كتاب العين ان « هذا ما ألفه الخليل ••• من حروف ••• فكان مدار كلام العرب والفاظهم ••• »(العين ص ٥٢) فالحروف تمثل الكلام والالفاظ وليس الكتابة واجزاء النظام الخطى العربي • ومرد ذلك فى تقديرنا الى ان الحروف فى الكتابة العربية تمثل أصوات العربية الفصحى بشكل دقيق نسبيا فكما تمثل الرموز الدولية (IPA) اصوات اللغات المختلفة فى الوقت الحاضر كانت حروف الهجاء العربية تمثل اصوات اللغة العربية على الاقل فيما يتعلق بالسواكن ولقد افردت الضمه والفتحه والكسره للحركات القصيرة والواو والالف والياء للحركات الطويلة • نستخلص من هذا ان تعبير « الحرف » فى كتاب

العين يوازى تعبير « الرمز الصوتى "IPA symbol" وتعـــير "letter" بمعناهما الحديث •

ثالثا : النظرية العامة لعلم الصوت وتطبيقاتها على اللغة العربية :

آ ـ تصنيف الوحدات الصوتية :

يقسم اللغويون فى عصرنا هذا الوحدات الصوتية (نشير اليها احيانا بالاصوات) الى قسمين اساسيين هما الوحدات التقطيعيـة (segments) والوحدات التنغيمية (super-segments) والوحدات التقطيعية تضـــم السواكن والحركات ، اما الوحدات التنغيمية فتضـــم الشـــدة (stress) والوقـــف (juncture) والتنغيـــم (intonation).

وفى اللغة العربية توجد وحـدات تقطيعية واخـرى تنغيميـة والاولى تشمل السواكن والحركات والثانية تشمل النواحى الثـلاث التـى سـبق ذكرهـا فى اعـلاه •

فالسواكن العربية هى :

ف ث س ش ص خ ح هـ و ذ ظ ز ل (خفيفـة « رخـوة » وشديدة) ر ن غ ع ت ط ك ق ء ب د ض ج ى

اى ان عددها ثمان وعشرون ساكنا اذا اعتبرنا اللام ساكنا واحدا فى الفصحى (Gairdner, pp. 12-16).

اما الحركات فى اللغة العربية فيعتبرها اللغويون فى عصـرنا اصواتا قصيرة وهى تشكل عنصرا رئيسا من عناصر النظام الصوتى العربى بالرغم من ان اللغات السامية تميل عادة الى اغفالها وعدم افراد حروف لها لتبدلها وعدم استقرارها • على ان هناك حركات طويلة ايضا فى اللغة العربيـــة وتمثل الحركات القصيرة فى الكتابة العربية بالضمة والفتحة والكسرةوتمثل الحركات الطويلة بالواو والالف والياء وعلى هذا توجد فى العربية حركات

قصيرة وطويلة والطويلة تعتبر امتدادا للحركات القصيرة وعلى هذا الاساس يعتقد اللغويون المعاصرون أن للعربية ثلاث حركات أساسية فقط (Gairdner, p. 34)

اذ ان الواو ضعف الضمة والالف ضعف الفتحة والياء ضعف الكسرة •

نلاحظ ان الواو والياء ذكرتا مرتين : مرة مع السواكن ومرة مع الحركات ، وفي الحقيقة يعتبر الواو ساكنا سواء تلته حركة طويلة ام قصيرة كما في **وعد** و**واحد** ويعتبر الواو حركة طويلة (ضعف الضمة) اذا سبقه ساكن كما في **عود** • وكذا الياء يخضع لنفس القاعدة فهو ساكن في **يذهب** وهو حركة طويلة في **عيد** •

اما الشدة فيقال عنها انها ميكانيكية في اللغة العربية اذا انها تتبع التضعيف او التقاء السواكن (consonant clusters) او الحركات الطويلة • فيقال ان الشدة في الكلمة المتعددة المقاطع تقع على آخر مقطع فيه صوت ساكن مصاعف كما في **عَمَّر** Eammara وان لم يوجد مثل هذا فعلى آخر مقطع يوجد فيه حركة طويلة كما في **انتما** antumaa وفيما عدا هذا تقع الشدة على المقطع الاول للكلمة

(Van Wagoner, p. 24)

اما الوقف والتنغيم في العربية فلم يلقيا حتى الان نفس المستوى من الاهتمام والتمحيص كالذي لقيته النواحي المماثلة لهما في اللغات الاوربية الاخرى • الا انه من الثابت ان الوقف له قيمته اللغوية في اللغة العربية بدرجة لا تقل عن قيمته في اية لغة اخرى • ففي الجملة التالية مثلا (محمد علي الامين المساعد للجمعية) يختلف المعنى اذا وقفت قبل كلمة **الامين** عنه اذا وقفت بعدها • فان توقفت بعدها أصبحت الكلمة جزءا من اسم الشخص وكان الشخص مساعدا للجمعية او من اعوانها وان توقفت قبل كلمة **الامين** أصبحت الكلمة جزءا من لقب الشخص وأصبحت وظيفته امينا مساعدا للجمعية وليس من اعوانها •

اما التنغيم (intonation) فيخضع لدرجات اربع من صعود الصوت ونزوله وكل درجة تسمى نبره (pitch) بحيث يتميز تنغيم السؤال عن تنغيم الامر وعن تنغيم الجملة الخبرية او عن تنغيم جمل التعجب وغير ذلك • فالجملة **تذهب معي** تقال وكأنها جملة خبرية أو كأنها أمر مشدد او كانها سؤال او كانها تدل على التعجب وفى كل حاله يرتفع الصوت وينخفض فى نبرات معينة تدل على المعنى المقصود •

لا يتعرض العين للتنغيم ولا للوقف اطلاقا الا انه يتعرض بالتفصيل لبحث السواكن والحركات ويلمح باشارة عابرة الى الشدة • فيرد فى العين انه « فى العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحاح لها احياز ومدارج واربعة هوائية وهى الواو والياء والالف اللينه والهمزة • » (العين ص ٦٤) والحروف الصحاح (اى الاصوات السواكن) هي : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض س ص ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م (العين ص ٦٥) •

فاذا ما قورنت هذه السواكن بالسواكن التي يذكرها اللغويون المعاصرون نجد ان كتاب العين قد اعتبر الواو والياء صوتين معتلين (اى حركتين) فى كافة مواقعهما كما ان كتاب العين اعتبر الهمزة احدى الحركات وهى فى الحقيقة صوت ساكن لا تختلف عن بقية السواكن فى سلوكها العام كما ان العين لم يميز بين اللام الخفيفة واللام الثقيلة وقد يكون مرد ذلك قلة ورود اللام الثقيلة فى كلام العرب •

اما الشدة فقد ورد ذكرها فى كتاب العين لدى بحث بناء الكلمات حيث ذكر ان « الراء فى اقشعرّ واسبكرّ هما راءان ادغمت احداهما فى الاخرى والتشديد علامة الادغام » (العين ص ٥٤-٥٥) • ويتفق تصور الحديثة عن اللغة العربية فى كون الشدة تقترن بتضعيف السواكن • الا الخليل للشدة جزئيا على الاقل مع ما توصلت اليه الدراسات اللغوية

أنه يحتاج بحث الشدة فى العين الى توسع أكثر واستقصاء اوسع للمواقع التى ترد فيها الشدة كورودها مقترنه بالحركات الطويلة او مقترنه بالتقاء السواكن فى بعض الحالات •

ب ـ وصف الاصوات :

١ ـ وصف السواكن

يتفق علماء اللغة فى عصرنا هذا على وصف السواكن بمعايير ثلاثة ، اولها اهتزاز الاوتار الصوتية (voicing) وانعدام هذا الاهتزاز • ويعطينا هذا المعيار نوعين من السواكن : المجهورة وهى التى تهتز الاوتار الصوتية لدى نطقها والمهموسة وهى التى لا تهتز الاوتار الصوتية لدى نطقها • والمعيار الثانى هو وصف السواكن حسب مخارجها وقد درج علماء اللغة على البدء بالاصوات التى تنطلق من الفم والانتهاء بالاصوات التى تنطلق من الحنجرة • اما المعيار الثالث فهو وصف السواكن حسب طريقة لفظها اى طبقا للكيفية التى نعامل بها النفس الصاعد من الرئتين لدى وصوله الى نقاط الارتكاز فى اجهزة النطق •

فبالنسبة للمعيار الاول تقسم السواكن العربية الى مجهورة هى : ب م و د ل ذ ز ض ظ ن ر ج ى غ ع والى مهموسة هى : ف ت ث س ط ص ش ك خ ق ح ء هـ •

اما مخارج السواكن فيختلف علماء اللغة فى تحديدها وذلك طبقا لاختلاف اللهجات التى تجرى دراستها وكذلك بتأثير عوامل اخرى كثيرة الا انه يوجد ما يشبه الاجماع على تحديدها كما يلي :ـ

الشفوية : ب م و
الشفوية الاسنانية : ف
الاسنانية : د ث ذ س ز ت
اللثوية المفخمة : ط ظ ض ص